تفسير آيات الصيام

يُخبر تعالى بما منّ به على عباده -المؤمنين منهم- بالله ورسوله المُصدقين بهما والمُقرّين، آمراً لهم بالصيام، وهو الإمساك عن الطعام والشراب والوِقاع بنية خالصة لله عزّ وجل، وذكر أنه كما أوجبه عليهم فقد أوجبه على من كان قبلهم من أهل الكتاب.

ثم ذكر تعالى حكمته من مشروعية الصيام فقال **"لعلكم تتقون"**، فالصوم من أكبر أسباب التقوى لأن فيه امتثال أمر الله واجتناب نهيه فمما اشتمل عليه من التقوى - كما ذكر السعدي رحمه الله -:

- أن الصائم يترك ما حرم الله عليه في الصيام مُتقرباً إلى الله راجياً ثوابه، فهذا من التقوى.
- الصائمُ يدرب نفسه على مراقبة الله تعالى.
- الصيام يُضيّق مجاري الشيطان، فإنه يجري من ابن آدم مجرى الدم، فبالصيام يضعف نفوذه، وتقل منه المعاصي.
- الصائمُ في الغالب تكثر طاعاته، والطاعات من خِصال التقوى.
- الغنيُّ إذا ذاق ألمَ الجوع أوجب له ذلك مواساة الفقير المعدوم، وهذا من خِصال التقوى.

ثم بيّن تعالى مقدار الصوم وأنه "أياماً معدودات"، وأنه ليس في كل يوم لئلاّ يشقَّ على النفوس فتضعف عن حمله وأدائه، بل يسّره تعالى بأن جعله في أيام معدودات، والمعدودات هي التي تعدّ مبالغها وساعات أوقاتها، فهن مَحْصيّات قليلات في غاية السهولة، والأيام المعدودات هي أيام شهر رمضان.

ثمّ يسّر تعالى على عباده حين رخّص للمريض والمسافر فقال: **"فمن كان منكم مريضاً أو على سفرٍ فعدّةٌ من أيام أُخر"**، فالمريض أو الصحيح غير المريض -لكنه على سفر- عليه صوم عدّة الأيام التي أفطرها في مرضه أو في سفره من أيام أُخر (غير أيام مرضه أو سفره).

وقوله: **"وعلى الذين يُطيقونه"** أي الذين يُطيقون الصيام، عليهم (فدية) عن كل يومٍ يُفطرونه طعامُ مسكين، وكان ذلك في ابتداء فرض الصيام، لمّا كانوا غير معتادين للصيام وكان فرضه حتماً فيه مشقة عليهم، درّجه الربُّ الحكيم بأسهل طريق، وخيّر المُطيق للصوم بين أن يصوم وهو أفضل، أو يُطعم، ولهذا قال: **"وأن تصوموا خيرٌلكم"**، ثمّ نُسخت هذه الآية بالآية التي بعدها **"فمن شهد منكم الشهرفليصمه"** فتعين الصيام على القادر الصحيح الحاضر في (شهر رمضان)، الشهر الذي امتدحه تعالى قائلا: **"شهررمضان الذي أنزل فيه القرءان هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان"**، فقد اختاره تعالى من بين الشهور لإنزال القرآن العظيم، إذ أُنزل القرآن في ليلة القدر من اللوح المحفوظ إلى السماء الدنيا، ثمّ أُنزل إلى محمد صلى الله عليه وسلم على ما أراد الله إنزاله إليه.

"شهررمضان الذي أنزل فيه القرءان هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان": القرآن الذي أنزله الله هدىً لقلوب العباد -ممن آمن به وصدّقه واتّبعه- وبينات أي: دلائل وحجج بينة واضحة جليّة لمن فهمها وتدبرها، دالة على صحة ما جاء به من الهدى المنافي للضلال والرشد المخالف للغي، ومفرقاً بين الحق والباطل والحلال والحرام.

"فمن شهد منكم الشهرفليصمه": هذا إيجاب حتمٌ على من شهد استهلال الشهر- أي كان مقيماً في بلدٍ حين دخل شهر رمضان وهو صحيح في بدنه - أن يصوم لا محال، ونَسَخَتْ هذه الآية الإباحة المتقدمة لمن كان صحيحاً مقيماً أن يُفطر ويفدي بإطعام مسكين عن كل يوم، ولمّا حتّم تعالى الصيام أعاد ذكر الرخصة للمريض والمسافر أن يُفطر بشرط القضاء فقال: **"ومن كان مريضاً او على سفرٍ فعدّة من أيام أُخر"** ولذا أتبعها تعالى بقوله: **"يُريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر"** أي: يريد الله تعالى أن ييسر عليكم الطرق الموصلة إلى رضوانه أعظم تيسير، ويُسهلها أشدّ تسهيل، فرخص لكم في الإفطار للمرض والسفر ونحوهما من الأعذار لإرادته بكم اليسر،

"ولتكملوا العدّة" أي عدّة شهركم، عدّة ما أفطرتم من أيام أوجبت عليكم قضاء عدةٍ من أيامٍ أُخر بعد بُرئكم من مرضكم أو إقامتكم من سفركم ".

"ولتكبروا الله على ما هداكم" أي: ولتعظموا الله بالذكر له عند انقضاء عبادتكم لِما أنعم عليكم به من الهداية التي خذل عنها غيركم من أهل الملل الذين كُتب عليهم من صوم شهر رمضان مثل الذي كُتب عليكم فيه فضلّوا عنه بإضلال الله إيّاهم وخصّكم بكرامته فهداكم له ووفقكم لأداء ما كُتب عليكم من صومه، وتشكروه على ذلك بالعبادة له.

"ولعلكم تشكرون" أي ولتشكروا الله على ما أنعم به عليكم من الهداية والتوفيق وتيسير ما لو شاء عُسّر عليكم.

"وإذا سألك عبادي عنّي فإنّي قريب أُجيب دعوة الداعي إذا دعان فليستجيبوا لي وليؤمنوا بي لعلّهم يرشدون": وإذا سألك -يا محمد- عبادي عني، أين أنا؟ فإنّي قريب منهم أسمع دعاءهم وأُجيب دعوة الداعي منهم.

"فليستجيبوا لي": أي بالطاعة، وليدعوني وليؤمنوا بي أي: وليصدقوا ويؤمنوا بي، إذا هم استجابوا لي بالطاعة انّي لهم من وراء طاعتهم لي في الثواب عليها وإجزال الكرامة لهم عليها، وليؤمنوا إذا هم دعوني أنّي أستجيب لهم.

"لعلّهم يرشدون": فيرشدوا ويهتدوا، أي يحصل لهم الرشد الذي هو الهداية للإيمان والأعمال الصالحة، ويزول عنهم الغيّ المنافي للإيمان والأعمال الصالحة، ولأن الإيمان بالله والاستجابة لأمره سبب لحصول العلم كما قال تعالى: "يا أيها الذين آمنوا إن تتقوا الله يجعل لكم فرقانا"، وفي ذكره تعالى هذه الآية الباعثة على الدعاء متخللة بين أحكام الصيام إرشادٌ إلى اجتهاد في الدعاء عند إكمال العدّة بل وعند كل فطر، فقد روى عبد الله بن عمرو عن رسول الله صلى الله عليه وسلّم أنه قال : ((للصائم عند إفطاره دعوةٌ مستجابة)) ،وفي رواية أُخرى ((للصائم عند فِطره دعوةٌ لا ترد))، فمن دعا ربّه بقلب حاضر ودعاء مشروع ولم يمنع مانع من إجابة الدعاء كأكل الحرام ونحوه فإنّ الله قد وعده بالإجابة وخصوصاً إذا أتى بأسباب إجابة الدعاء وهي الاستجابة لله تعالى بالانقياد لأوامره ونواهيه القولية والفعلية والإيمان به الموجب للاستجابة.

والله أعلم